رحلة العقل والإيمان: مصطفى محمود وشبهات اليسار

غوهر أحمد كمار *
د. طارق أحمد أهنغر*

الملخص

مصطفى محمود مفكر مصري يحتل مكانة مرموقة بين الأوساط العلمية لأعماله التي تشّكل كما هائلا من حيث العدد, والتي تزخر بالقضايا الفكرية المتنوعة. لقد حارب الأفكار التي كانت شائعة في البيئة المصرية حينئذ, مثل: الفكر الإلحادي, والصهيوني, والمادي, فكشف عن زيفها وأبان حقيقتها, وكذلك الشيوعية التي كان مصطفى محمود من مؤيديها في إحدى مراحل حياته حتى انقلب معارضا لها, وصار يهاجم هذا الفكر بكل شدة, وهذا التحوّل الفكري الخاص من حياته يمثّل أهمية بالغة لدرجة أنه يستحق أن يطلق عليه "من الشيوعية إلى الإسلام". يهدف هذا البحث إلى إبراز سفره الفكري هذا, من تأييده إياها إلى معارضتها, وبيان تلك الأسباب والدوافع التي جعلته يهجر هذا الفكر. وقبل أن نلج غمار الموضوع نترك للقارئ قطعة مقتضبة من المقالة حول الشيوعية و تاريخها.

الكلمات المفتاحية: الشيوعية, مصطفى محمود, مصر, الإسلام, الماركسية, الاشتراكية

الشيوعية:

الشيوعية هي مجموعة أفكار وعقائد ورؤى اشتراكية ثورية ماركسية تنادي بضرورة وحتمية إطاحة النظام الرأسمالي وإقامة مجتمع المساواة والعدل في إطار أممي مرتكز على الملكية

* باحث الدكتوراه، جامعة كشمير، الهند، البريد الإلكتروني: gowhar.arscholar@kashmiruniversity.net
* المنسق بقسم اللغة العربية، جامعة كشمير

العامة لوسائل الإنتاج وخال من التمييز الطبقي والاجتماعي, بحيث تختفي الفروق والتفاوتات بين المدينة والريف, وبين العمل الذهني واليدوي, و بين المرأة والرجل, ويتم إلغاء الدولة[١]. ظهرت في ألمانيا على يد كارل ماركس وانجلز اللذان اعتقدا أن التغيير[٢] لا يأتي إلا بالعنف وسفك الدم, يقول ماركس: "العنف هو ممرضة التغيير"[٣] ولا ولادة من دون الدم, وأتى بالفكر المادي التاريخي الذي يعبّر عن خمس مراحل تطور المجتمع فيها, وأعلى مراحلها "الاشتراكية " التي سمّاها أيضا بدكتاتورية العمال, وكما دوّن لنا التاريخ كيف كبت الحزب الشيوعي في روسيا الأفواه الناطقة ضدهم, ولم يتحمّل أية معارضة, أو قليل من الخلاف مجاهرا بدكتاتوريته. وقد عرّف الميداني الشيوعية بأنها: "مذهب فكري يقوم على الإلحاد, وأن المادة هي أساس كل شيء, ويفسّر التارخ بصراع الطبقات, وبالعامل الاقتصادي". [٤]

قاد فلادمير لينن -أحد أتباع ماركس- الثورة البلشفية أو ثورة أكتوبر عام ١٩١٧م ليطبّق الشيوعية كنظام حكم في أرض روسيا, فقام مع جماعته بقتل الناس وحرقهم وإعدامهم حتى عدّت هذه الثورة أكثر الأحداث السياسية عنفا لما نتج عنها من أحداث خطيرة دامية كما يقول المؤرخ سرغي والكاو (Sergie Volkov): "إن البلشفيين قتلوا قرب مليوني شخص بين ١٩١٧م

---

[١] الكيالي، عبد الوهاب: **الموسوعة السياسية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، ج: ٣، ص: ٥٣٤

[٢]: التغيير هنا استبدال الرأسمالية بدكتاتورية العاملين الفلاحين

[٣]: Karl Marx's "Capital" (Vols. 1,2,3), Abridged, 1st Edition 2020, FFLCH/USP,Sao Paulo{Brazil}. P: 141

[٤]: مكتب تبيان للدراسات العربية وتحقيق لصاحبه أبو عيسى محمد بن حسين المصري، الموسوعة المفصلة في الفرق والأديان والملل والمذاهب والحركات القديمة والمعاصرة، دار ابن الجوزي، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى ٢٠١١ ، ج:٣، ص: ٩٢٣

و ١٩٢٢م, وكانت هذه الثورة تسمى أيضا بالإرهاب الأحمر"[٥]. أخيرا نجح لينن, فأسس الاتحاد السوفيتي و طبّق الشيوعية.

وأما الشيوعية في العالم العربي فقد نبتت بذورها قبل تأسيس الاتحاد السوفيتي خلال فترة الاستعمار الأوربي وكانت في بدايتها جزء من التأثيرات الفكرية التي جلبها المستعمرون ولم تكن حركة سياسية منظمة ولكن كان لثورة البلشفية التي جلبت بالاتحاد السوفيتي أثر كبير في نشرها تنظيميا في عدة بلدان عربية[٦] فتأسس "الحزب الشيوعي المصري" في (١٦ أغسطس ١٩٢١م)[٧] , في نفس السنة التي ولد فيها مصطفى محمود.

تأثير الشيوعية في مصطفى محمود

عاش مصطفى محمود في مرحلة كانت المادية سائدة ورائدة فيها, وكانت الغيبيات تُرفض, أمور الدين تُستخف, وكان أمرا طبيعيا أن يتأثر مصطفى محمود بما حوله حتى وقع في الفكر الشيوعي, غير أنه شاع بين الخاصة والعامة أنه لم يقتنع بهذا الفكر قط لكنه صرّح بذلك نفسه قائلا: "حينما بدأت أكتب في الخمسينيات كانت الماركسية هي موضة الشباب الثائر في ذلك الوقت, و كنا نقرأ منشوراتها في نهم فتحرك مثالياتنا بما تعدّ به من فردوس أرضي و عدالة و رخاء و غذاء و كساء للعامل و الفلاح, و محاربة للإقطاع و الاستغلال و تحرير للجماهير"[٨] ويقول في موضع آخر: "هذا هو السر الحقيقي في أنني بدأت بالفكر المادي لأنني بدأت بالمسلمات

[٥]: https://www.russiaislove.com/history/329091-how-many-lives-claimed-red-terror, Written by Alexey Timofeychev on Sept. 07, 2018

[٦] صقر، حاتم، الشيوعية في العالم العربي، دار المدى، بغداد-العراق، الطبعة الثالثة، ٢٠١١ص١٣-٥٧

[٧] ياسين، عبد القادر، الحركة الشيوعية المصرية؛ الجذور-القسمات-المآل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١١، ص١٥

[٨]: محمود، مصطفى، لماذا رفضت الماركسية، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص٧

الأولية العلمية و من هنا بدأت أتعاطف مع الفكر المادي في كتابي الأول "الله والإنسان" ، بل و تعاطفت مع الماركسيين على الرغم من أنني لم أدخل يوما معهم أو حتى ضدهم في تنظيم، و لكن حدث ذلك بحكم البداية.. بحكم تعاطفي مع الموقف العلمي والمادي، والفكر المادي الجدلي.. حدث ذلك حين كتبت هذاالكتاب في عام ١٩٥٤م ، ثم صدر بعد ذلك عام ١٩٥٦م، ولكن منذ عام ١٩٥٧م دخلت في مرحلة جديدة و طويلة مع النفس"[٩] وهذا الكتاب " الله و الإنسان" صودر من قبل الحكومة لإثارة ضجة كبرى في البيئة المصرية حتى اتهم بالإلحاد"[١٠]. دعا فيه إلى المادية البحتة و هاجم على الأديان كلها، و تكلم في القدر، و مجّد الغربيين و فلاسفتهم، و دعا علنيا و رمزيا إلى الشيوعية دون أن ينضم رسميا إلى جماعتهم، و لكنه تراجع عما عرضه في هذا الكتاب كما يقول: " و هذا ما قالته رحلتي الفكرية الطويلة.. من بدايتها المزهوة في كتاب "الله و الإنسان" إلى وقفتها الخاشعة على أبواب القرآن..." [١١]

دفاع مصطفى محمود عن أفكار الشيوعية واعتقاداتها

كما ذكرنا آنفا أن مصطفى محمود كان متأثرا بالأفكار الشيوعية حسب اعترافه به في مقابلة مع محمود فوزي، ولكنه لم يتوقف عند التأثر فقط، بل كتب مقالات عديدة تدعم أفكارها واعتقاداتها كما هو موضح أدناه:

تبجيل المادية: إن المادية هي أساس الفكر الماركسي، و تأتي بالفكرة أن الواقع يمكن تفسيره ماديا فقط، وأنه لا توجد حقيقة تتجاوز الطبيعة المادية للعالم، لذا أنكرت الروحانية والأديان كما

[٩]: فوزي، محمود، اعترافات مصطفى محمود، دار النشر هاتييه، الجيزة، مصر، ص:٢٤

[١٠] المصدر نفسه، ص: ٦١

[١١]: محمود، مصطفى، رحلتي من الشك إلى الإيمان، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص٥٤

أنكرت جميع الفلسفات التي فسّرت عن الحقائق فوق المادية. فقدمت المادية التاريخية, والمادية الجدلية التي تأثر بها مصطفى محمود حتى قال "السماء لا تمطر خبزا.. و لا حريات.. كل شيء في دنيانا صناعة أرضية.. حتى المثل العليا والأحلام.. لقد مضى الزمن الذي كنا نتلقى فيه تعاليمنا من جبريل.. وتحول أصحاب الرسالات إلى أصحاب معامل وأصحاب مصانع وشركات, وتحولت فضائلنا إلى شيكات تصرف بشباك بنك باركليز.."[١٢]و قال: "و لو لا بترول الحجاز لظلّت مكة تعتمد على زوار الكعبة كل عام لتعيش... الدين ينتعش كلما كان مورد رزق و مورد حياة.."[١٣], و قد كثرت أشباه هذه الأقوال في كتابه "الله و الإنسان".

نظرية الفائض(Surplus Theory): هي تقسيم الربح الذي يحصل عليه صاحب المصنع بعد إخراج نفقاته على الأداة والأجهزة, بينه وبين العمال حتى تساوي طبقةُ العمال /البروليتاريا(Proletariats) طبقةَ أصحاب المصانع /البرجوازية (Bourgeoisie) اقتصاديا, والغاية هي أن يتساوى الجميع مالا ونفوذا. فقد أيّدها مصطفى محمود رمزيا يقول: "...طريق واحد يخلق مجتمعا من المحسنين.. هو أن يكون باقي المجتمع من الشحاذين.. فالصدقة تحتاج إلى شحاذ يأخذها... ويستوي الأمر أن يكون الشحاذ من سكان الأرصفة أو من أرباب الخدور[١٤]...فسواء تصدقت في العلن أو طرقت الباب على رجل فقير و غمزته في الخفاء.. فقد وافقت على مبدأ الصدقات.. وعلى التمتع بهذه اللذة..التي تقيم منك إلها متفعلا و تهبط بغيرك إلى مستوى الإنسان الذليل المعدوم الحقوق... فالصدقة ليست حلا للمشاكل و لكنها

[١٢]: محمود، مصطفى، الله والإنسان، دار الجمهورية.، ص: ٧٩

[١٣]: المصدر نفسه، ص٢١

[١٤]: هو تعبير للنساء العفيفات اللاتي يلزمن بيوتهن، و"الخدور" جمع "خِدر" وهو الستر والغطاء

عجز عن إيجاد الحل(منتقدا مبدأ الصدقة)[١٥] , واتضح هنا أن مصطفى محمود كان يدعو إلى التساوي الاقتصادي الاجتماعي الذي هو غاية نظرية الفائض.

الهجوم على الأديان: الماركسية تعد الدين أداة يستخدمها أصحاب المال والسلطة لمصالحهم, و هو من اختراعهم, وهو تخدير لوعي الفقراء. وقد عبّر ماركس عن ذلك في عبارته الشهيرة بأن: "الدين أفيون الشعوب". أي أن الدين يُستخدم لإلهاء الطبقات الفقيرة عن أوضاعها الصعبة ويحول بينها وبين إدراك الأسباب الحقيقية لبؤسها. و قد دعم مصطفى محمود هذا الفكر بكل ما كان لديه من القوة في تلك المرحلة, يقول: "... والعمر واحد أيضا قد تكون الحقيقة شيئا آخر جديدا نكتشفه نحن كما اكتشفنا الأديان من قبل و نقدمه للغرب في تواضع"[١٦] , و يقول: "الطريقة العصرية في بلوغ الفضيلة ليست الصلاة"[١٧], ويقول: " الأديان سبب من أسباب الخلط في معنى السعادة لأنها هي التي قالت عن الزنى و الخمر لذات, و حرمتها, فتحولت البسطاء و السذج على أنها السعادة و هي ليست بسعادة على الإطلاق.."[١٨] و هو لا يكتفي على هذا, بل كتب مقالة مسقلة حول الأديان, يسميها "الله" و يأتي بفكرة "تطور الأديان" الذي يلزم أنها كانت من قبل التطور في حالة من الضعف ثم تطورت. صحيح أن هناك أديان تدعو إلى الأشياء لا تُعقل مثل الهندوسية الفيدية, والديانات المصرية القديمة التي تكثر فيها الأرباب, ولكل رب وظيفة تختلف عن وظيفة رب آخر, و لكن خلط هذه الأديان بالدين السماوي,ثم تسميته

[١٥] محمود، مصطفى، الله والإنسان، دار الجمهورية،،ص٤٥

[١٦] المصدر نفسه ، ص٢٦

[١٧]: المصدر نفسه ص٢٤

[١٨]: المصدر نفسه ، ص٥٤

"بالأديان السماوية" فهذا يعني أن ما أنزل على موسى عليه السلام يختلف عما أنزل على عيسى عليه السلام و كذلك عما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم. فهذا هو خطأ جلي، والصحيح إن المنزِل واحد، و المنزَّل شيء واحد، و قد وقعت فيه تحرفات من قبل ضالين ومضلين من الناس، و من مِنن الله أنه بعث الأنبياء مع الصحف من حين لآخر ليزيلوا هذه التحريفات، و ليذكروا الناس بحالقهم الواحد الذي لا يستحق غيره نوعا من العبادة.

و قد أنكر مصطفى محمود بعض الحقائق التي أتى بها الدين، مثل: وجود الروح، والخلود قائلا: "من أين جاءت له(للإنسان) إذن فكرة الخلود.. من أين جاءت للإنسان فكرة أن له روحا تهزم الفناء. و تهزم التغير.. روحا تخرج من جسده مع الموت و تذهب إلى عالم آخر لا موت فيه .[١٩]، ويقول: " ليست هناك نفس منفصلة عن الجسم... إنما النفس ظاهرة من ظواهر الجسم.. غنها كالحرارة المنبعثة من الفرن.. إذا انطفأ الفرن وتحول الرماد.. انطفأت و ضاعت" [٢٠]. إن أمثال هذه المقولات صدرت عنه بسبب تأثره من المادية الجدلية و المادية التاريخية في تلك المرحلة.

أسباب هجر مصطفى محمود الشيوعية:

كانت أفكار مصطفى محمود دائمة النمو والتطور لأنه كان في بحث وتنقيب دائم للوصول إلى الحقيقة فلم يلبث على هذا الموقف طويلا. كتب في تأييده عام ١٩٥٤م ثم تراجع عن هذا الموقف عام ١٩٥٧م والأسباب التي دفعته على ترك الشيوعية هي كما يلي:

[١٩] نفس المصدر، ص١١٦

[٢٠]: نفس المصدر، ص١٢١

زيارته لبلاد الشيوعية: كان مصطفى محمود يقرأ كتابات سلامة موسى, وإصدارات نشطاء الشيوعية في مصر التي جعلت منه شابا متحمسا لتطبيق ما يسميه الشيوعيون بالعدل والمساواة, وأثارت إعجابه للبلاد التي كانت تحكم بالنظام الشيوعي, ولكن لما قام بجولة في تلك الأماكن, وجد سحب اليأس مغطية بها, ولا يوجد أثر الفرح على وجوه الناس كما يقول: "وكانت أول صحوة من ذلك الحلم حينما سافرنا إلى الخارج ورأينا الخراب والبؤس والوجوه الكئيبة المتجهمة في المجر ورومانيا وألمانيا وكافة البلاد الشرقية التي تجري في هذا الفلك. وبحثنا عن الرخاء والرفاهية والحرية والفردوس الأرضي فلم نجد له أثرا" [٢١]. و الحقيقة أن الدنيا لا تقاد بالعواطف, و كانت الشيوعية أقرب إلى الجانب العاطفي منه إلى الجانب المنطقي لذا فشلت في القيادة, وما استطاعت أن تمنح لناسها شيئا حتى يبذلوا له جهدهم. ورأينا بلادا سبقت بلادا أخرى في تطبيقها, ولكنها تخلصت منها بعد تجربتها عمليا مثل روسيا, فقد قضى ميخائيل غورباتشو(Mikhail Gorbachev) [٢٢]على الشيوعية, ومحاها عن أرض روسيا.

مطالعة القرآن الكريم: إن من أكبر وأهم الأسباب لتركه الشيوعية هو عكوفه على مطالعة القرآن الكريم كما يقول في إجابة لسؤال حول رحلته من الشك إلى الإيمان, وهو يستطرد جوابه إلى تأثره بالشيوعية ورجوعه إلى القرآن الكريم: " ...ولكن من عام ١٩٥٧م دخلت في مرحلة جديدة وطويلة مع النفس.. مراجعة طويلة هادئة.. تلك المراجعة التي ركبت فيها جميع المواصلات والوسائل الممكنة بداية بالعلم.. والفلسفة وعلم النفس, ثم بعد ذلك الأديان بداية

[٢١]: محمود، مصطفى، لماذا رفضت الماركسية، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص٥

[٢٢]: سياسي سوفيتي، وآخر أمين عام للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي، كان وراء تفكيك الاتحاد السوفيتي، و إنهاء الشيوعية في روسيا.

بالفيدات الهندية وزرادشت وانتهاء بالأديان السماوية حتى المنتهى.. القرآن الكريم.. وحين وصلت إلى القرآن الكريم كانت هناك كل هذه الخلفية الطويلة.. وأقولها بكل صدق.. وجدت كل هذا في عباءة القرآن الكريم فهي رحلة طويلة والذي يصل إلى نهايتها يقف على أرض صلبة بأقدام ثابتة وقلب مفعم بحب الله سبحانه وتعالى.. قلب لا أثر فيه لأدنى شك مطلقا.." [٢٣]

التأمل النفسي و المراجعة: كانت شخصية مصطفى محمود تتميز بعدم اللجاجة والعناد لموقف يتخذه, فكان متعودا على التأمل ومراجعة أفكاره, وهذا الحافز كان دائما يدفعه إلى الأمام, ولا يدعه يتجمد على موقف, فقد انتقل من الشك في الله إلى الإيمان الثابت به, والأفكار التي اتخذها من الشيوعية, راجعها حسب عادته, فتركها وأصبح يرد عليها ردا مريرا لاذعا . يقول عن نفسه: "ثلاثون عاما من الغرق في الكتب وآلاف الليالي من الخلوة والتأمل مع النفس وإعادة النظر ثم إعادة النظر في إعادة النظر, ثم تقليب الفكر على كل وجه, لأقطع الطرق الشائكة من الله والإنسان إلى لغز الحياة إلى لغز الموت إلى ما أكتب اليوم من كلمات على درب اليقين"[٢٤]

الإلحاد المرتبط بالشيوعية: إن مصطفى محمود لم ينكر ذات الله مطلقا كالشيوعيين فكان طيش شبابه وزهوه بعقله يلقي به إلى أن يأتي بالشبهات, وكان قد اعتراه الشك في سن مبكر بعد قصة قتل الصراصير, و هي أن شيخ المسجد المجاور من بيته أرشده بتعليق التعويذة على حائط البيت للتخلّص من الصراصير. فآمن به إيمانا حازما, و فعل حسبما قيل له, و لكن الصراصير لم تمت, بل اتخذت الصراصير تلك التعويذة مأوى لها. فخاب ظنه, وبدأ يشك في

[٢٣]: فوزي، محمود، اعترافات مصطفى محمود، دار النشر هاتييه، الجيزة، مصر، ص:٢٤-٢٥

[٢٤]: محمود، مصطفى، رحلتي من الشك إلى الإيمان، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص٩

الدين. ولكن الومضة النورية الفطرية لم ينطفئ قط في قلبه بعد أن أوقعه هذا الشيخ بجهله عن الإسلام الصحيح في درك الشكوك, والالتباس كما يقول نفسه: " أنا عمري ما شكيت في وجود الله وسبحانه وتعالى.. وأنه الواحد الأحد القهار.. ولم ينتابني الشك مطلقا في القدرة الإلهية.."[٢٥]. فالإلحاد الشيوعي لم يصل إلى قلبه,ودفعه فكرهم هذا إلى التشكيك في مدى توافق الشيوعية.

معارضة مصطفى محمود للشيوعية وأهم أفكارها

كان مصطفى محمود من أبرز الشخصيات المعارضة للشيوعية, بعد أن اعتنق أكثر أفكارها, و قد حبّر مئات الأوراق, كاشفا حقائقها, ومبيّنا أخطاءها, ومزالقها كي لا تتسلل إلى عقل ساذج, ولا تنخدع بها العامة. كتب مصطفى محمود كتبا و مقالات عديدة في الشيوعية, منها: الماركسية والإسلام, و لماذا رفضت الماركسية, وأكذوبة اليسار الإسلامي, وسقوط اليسار, والخروج من مستنقع الإشتراكية, وأهم ما انتقد به الشيوعية هو كما يلي:

المادية التاريخية: هي تفسير مادي واقتصادي للتاريخ, وأن التاريخ سلسلة من الصراعات الطبقية, وتدفعه الظروف المادية أو الاقتصادية السائدة في عصر معين[٢٦], وأن هذه العوامل المادية والاقتصادية هي المحركات الأساسية للتغيرات الاجتماعية والسياسية والثقافية عبر التاريخ. يرد عليه مصطفى محمود قائلا: "اعتمد ماركس في استنباط نظريته عن التاريخ على بعض مراحل تاريخية دون الأخرى.. فكان ينتقي من التاريخ ما يوافق هواه ويهمل ما يناقض

[٢٥]: فوزي، محمود، اعترافات مصطفى محمود، دار النشر هاتييه، الجيزة، مصر، ص:٣٢

[٢٦]: https://www.britannica.com/topic/communism/Marxian-communism written by Richard Dagger and Terence Ball.

فكره.. ومن هنا لا يصح أن تكون للقوانين التي استخرجها صفة الإطلاق على التاريخ كله ولا تصدق عليها صفة القوانين وإنما هي في الحقيقة تلفيقات... وأقوى البراهين على ذلك نشأة الإسلام فلم يكن الإسلام قط من إفراز النظام الطبقي في قريش....و لم يأت الإسلام نتيجة انقلاب مناظر في نظام الإنتاج وعلاقات الإنتاج في قريش.. وإنما جاء كظاهرة فوقية مستقلة عن البيئة"[٢٧], ويقول: ذلك العامل الاقتصادي الواحد الذي جعل منه ماركس إلها تصدر عنه كل الأشياء وسببا وحيدا تتداعى من ورائه كل التغيرات التاريخية والحضارية فيما يسميه بالتفسير المادي للتاريخ... والعامل الاقتصادي بهذا لا يصلح أن يكون إلها تصدر عنه الأشياء وإنما هناك العامل القومي والنفسي والعنصري والعقائدي يمكن أن تشكّل التاريخ بأقوى مما يشكّله العامل الاقتصادي" [٢٨]

ادّعاء بعلمية الشيوعية: إن الماركسيين أشاروا في مواضع شتى بأن الشيوعية علم, لأنهم يرونها كمنهج لتحليل المجتمع وتغييره بناء على المادية التاريخية, لذا قالوا بحتمية النظام الشيوعي نتيجة حتمية الصراع الطبقي: "إن ما تنتجه البرجوازية, قبل كل شيء, هو حفار قبرها. إن سقوطها وانتصار البروليتاريا أمران حتميان معا"[٢٩] , وخلاصة القول إنه لا مفر من دكتاتورية البروليتاريا, و إن التاريخ يتبع مسارا ثابتا محددا يؤدي حتمية إطاحة الرأسمالية وقيام الشيوعية, ولكنها لم تكن إلا تنبؤات فشلت في التحقيق. يرد مصطفى محمود على دعواهم هذا بقوله:"

[٢٧]: محمود، مصطفى، لماذا رفضت الماركسية، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص٨

[٢٨] المصدر نفسه –١٢

[٢٩]: Manifesto of the Communist Party by Karl Marx and Frederick Engels, Feb. 1848, Translated by Samuel Moore in cooperation with Frederick Engels, 1888: Marx/Engels Selected Works, Vol. One, Progress Publishers, Moscow, 1969, pp. 98-137

ومن أكثر الأكاذيب شيوعا.. قولهم الدائم الدائب.. بأن الماركسية علم ودعواهم بأن كلامهم هو الكلام العلمي وفكرهم هو الفكر الموضوعي وإطلاقهم وصف الاشتراكية العلمية على مجموعة الأفكار الظنية والمنشورات التحريضية التي يروّجونها. ولم يكن كارل ماركس علميا حينما انتقى من التاريخ بضع مراحل على هواه ولفق منها مذهبا طبقه اعتسافا على التاريخ كله.... و تعمد كارل ماركس إسقاط مراحل كاملة من التحول التاريخي لأنها ناقضت مذهبه.. فهل كان علميا في استقرائه.[٣٠]. وتفسيرا لذلك أن العلم لا يهمل العناصر أو الأدلة ذات الصلة عند صياغة النظرية, بل تستند إلى شمولية الملاحظة على خلاف ما فعله ماركس بكونه انتقائيا, وهذا ما يجّرد فكره من المستوى العلمي.

التضاد الأساسي في الفكر الماركسي: تحث الماركسية البروليتاريين على أن يقتلوا ويُقتلوا لأجل صيانة مادتهم, لأجل صيانة مادة من؟ بعد قتل أنفسهم, لماذا يعرض الواحد نفسه على القتل, لو علّمته الشيوعية أن اللعبة كلها مادية, وماذا يكسب إن قُتل, كيف يكافؤه الشيوعيون الآخرون ماديا, لأن الفرد ينتهي مع موته حسبهم. هذا ما أشار إليه مصطفى محمود: " وقع الفكر الماركسي في تناقض أساسي بين كونه فكرا يدعوا إلى التضحية والبذل من أجل الآخرين وبين كونه فكرا محروما من الحافز الديني والمبدأ الروحي.. والدين كما هو معلوم يمد الإنسان بأعظم طاقة ليضحى ويبذل بلا حدود وعن طيب خاطر"[٣١]، و يقول في موضع آخر: "إنما شجاعة

[٣٠] محمود، مصطفى، أكذوبة االيسار الإسلامي، دار المعارف، الطبعة الثالثة، ص٢٦-٢٧

[٣١]: نفس المصدر، ص٩

المحارب لا تكون إلا نتيجة إيمان واقتناع ومحبة مطلقة لشيء يؤمن به ويدافع عنه حتى الموت"[٣٢]

اختلال البنية الاجتماعية: إن الشيوعية تعتقد في مجتمع لاطبقي دون امتيازات مالية بين الأفراد, لذلك أتت بنظرية الفائض ولكنها لم تنجح عند التطبيق, فسبّبت التركيز على وظائف معينة وأحدثت أزمة توازن الأدوار الاجتماعية, عندما سعى الجميع إلى وظائف قيادية أو مكتبية, ولم يلتفتوا إلى الوظائف الأساسية مثل الزراعة, والتنظيف كما وجدناه خلال مدة الاتحاد السوفيتي حين احتاجت إلى استيراد الأشياء الضرورية من الأكل, من الخارج رغم كونها من أكبر دول زراعية عبر العالم [٣٣]. كان الحال نفسها في فترة الناصرية الاشتراكية في مصر, فعبّر مصطفى محمود عن هذا الوضع قائلا: " (و هل يمكن تصوّر جيش كله جنرالات).. وتوقفت الزراعة في الريف ونزل الفلاحون لشراء الخبز والزبد والبيض والدجاج من المدينة, ومدت المدينة يدها لتستورد القمح والدجاج والبيض من هولندا.. أنا وزير وأخويا أمير وابن عمي مدير مين حايسوق الحمير.. ومن يجمع زبالة القاهرة.. ولا يبقى إلا أن نعهد إلى شركة سويسرية لتقوم بنظافة شوارعنا.. والنتيجة قذارة متراكمة في كل مكان.. ولا أيدي تنظف.. الخمسون مليونا يريدون جميعهم أن يكونوا وزراء وخريجي جامعات... والدواوين مزدحمة بملايين من الموظفين لا يجدون كراسي ولا مكاتب ولا يعملون.."[٣٤]

[٣٢]: محمود، مصطفى -الماركسية والإسلام، دار المعارف، مصر، ص٨

[٣٣]: https://www.theatlantic.com/magazine/archive/1954/08/soviet-trade/640270/

[٣٤]: محمود، مصطفى، الغد المشتعل، دار أخبار اليوم، الطبعة الثالثة، يوليو، ١٩٩٥، ص٦٢

الإلحاد الشيوعي واللاديني: أفرغ مصطفى محمود كل إمكاناته في خدمة الدين لمعظم حياته, و أصبح سدا يمنع الإلحاد من التغلغل في العالم الإسلامي, و كان ترويج الإلحاد, وعدم اتخاذ الدين من أصول الماركسية, كما يقول مصطفى محمود: " تاريخ الشيوعية مع الدين تاريخ مثير يستحق التحليل والتأمل فالمذهب الماركسي في أصل منهجه يرفض الدين والغيبيات ولا يعترف بإرادة أو مشيئة خارجة عن الكون المادي, ويرى أن الكون المادي يفسّر نفسه بنفسه من دون حاجة إلى افتراض قوة إلهية سابقة على الوجود... و لهذا بدأ تاريخ الشيوعية بالحملة على الدين و على رجال الدين فهدم ستالين الكنائس واعتقل الرهبان وطارد القساوسة وألغى التعليم الديني من المدارس واستبدله بتدريس الإلحاد وجعل من الإلحاد شرطا أساسيا للعضوية في الحزب" [٣٥], ولكن ما كتبه مصطفى محمود ضد الإلحاد هو لا يخفى على عين, فقد رد عليه بأسلوب علمي منطقي وفلسفي فريد, ومن أشهر أعماله التي تناولت هذا الموضوع: حوار مع صديقي الملحد, و رحلتي من الشك إلى الإيمان, الإسلام في خندق, وبرنامجه التلفزيوني "العلم والإيمان", فعلى سبيل المثال: يرد مصطفى محمود على الحجة الإلحادية التي تقول: إن قانون السببية يستلزم أن يكون للخالق خالق آخر, بقوله" إنه تصوّرُ خضوع الخالق لقوانين مخلوقاته, فالسببية قانوننا نحن أبناء الزمان... والله هو الذي خلق قانون السببية فلا يجوز أن نتصوره خاضعا لقانون السببية الذي خلقه..."و من يتصوّر هذا "فهو بهذه السفسطة أشبه بالعرائس التي تتحرك بزنبلك وتتصور أن الإنسان الذي صنعها لا بد هو الآخر

[٣٥]: محمود، مصطفى، أكذوبة اليسار الإسلامي، دار المعارف، الطبعة الثالثة، ص٧

يتحرك بزنبلك.. فإذا قلنا لها: بل هو يتحرك من تلقاء نفسه.. قالت: مستحيل أن يتحرك شيء من تلقاء نفسه.. أني أرى في عالمي كل شيء يتحرك بزمبلك"[٣٦].

دافع مصطفى محمود العقائد الدينية الأخرى، والتي كان ينكرها في بداية الأمر، مثل الروح والبعث، فهو يقول: "إن الإنسان يستشعر بروحه من إحساسه الداخلي العميق المستمر بالحضور...وهو إحساس ينبئ بأنه يملك وجودا داخليا متعاليا على التغيرات متجاوزا للزمن والفناء والموت. و فلاسفة مثل عمانويل كانت وبرجسون و كير كجارد، لهم وزنهم في الفكر قالوا بحقيقة الروح والبعث..وفي كتاب جمهورية أفلاطون..فصل رائع عن خلود الروح"[٣٧]

العدالة الاجتماعية الإسلامية: أكّد مصطفى محمود أن الإسلام يأتي بمبدأ الملكية الخاصة و الملكية العامة مع أنه يمنع من الاستغلال والجشع، و يأتي بالزكاة بوصفها فرضا دينيا، والصدقة كقيمة أخلاقية فهما أداة لتحقيق توزيع الثروة، وتقليل الفوارق الطبقية كما يقول" والقرآن تناول العدالة الاجتماعية في أكثر من سورة، وهو يأمر صراحة بألا تحتكر الأموال بين أيدي القلة: (كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم- الحشر-٧)، (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم-التوبة- ٣٤).. والإنفاق يبدأ من ضريبة إجبارية ٢.٥ في المائة هي الزكاة، ثم يتصاعد اختيارا إلى أكثر من ٩٩ في المائة، فيأمر الصالحين بأن يأخذوا كفافهم و ينفقوا كل ما زاد على حاجتهم... ويبيح الملكية الفردية لحكمة عميقة، هي أن مصادرتها في الوقت نفسه الدرع والسند الذي يستند إليه الفرد، ليواجه السلطة الغاشمة

[٣٦] محمود، مصطفى، حوار مع صديقي الملحد، دار العودة، ١٩٨٦، ص٨

[٣٧] محمود، مصطفى، رحلتي من الشك إلى الإيمان، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص٥١

وينتقدها, فهي الشكل الخارجي للكرامة والأمان"[٣٨],و هذا هو الموقف الذي اتخذه واحتج به ضد الماركسية مصطفى محمود من الآيات, والأحاديث والمواقف من حيوات الصحابة التي تشير إلى الوسطية الإسلامية بين اليسار واليمين دون أي نوع من التطرّف.

الخاتمة

رحلة مصطفى محمود من الشيوعية إلى الإسلام ليست مجرد تحول فكري أو اعتناق عقيدة جديدة, بل هي درس على أهمية عدم الجمود نحو موقف, وأهمية البحث والتأمل, وتبرز محدودية الفكر المادي, وأن الإسلام قادر على تقديم إجابات عميقة وشاملة للإنسان الباحث عن الحقيقة, وكذلك تثبت الجرأة في مراجعة المعتقدات حين تفشل في تقديم إجابات شافية للأسئلة الملحة الكبرى.

المصادر والمراجع

١- الكيالي, عبد الوهاب, الموسوعة السياسية, المؤسسة العربية للدراسات والنشر, بيروت.

2. Karl Marx's "Capital" (Vols. 1,2,3), Abridged, 1st Edition 2020, FFLCH/USP,Sao Paulo{Brazil}.

٣- مكتب تبيان للدراسات العربية وتحقيق لصاحبه أبو عيسى محمد بن حسين المصري, الموسوعة المفصلة في الفرق والأديان والملل والمذاهب والحركات القديمة والمعاصرة, دار ابن الجوزي, القاهرة, مصر, الطبعة الأولى ٢٠١١

٤- صقر, حاتم, الشيوعية في العالم العربي, دار المدى, بغداد-العراق, الطبعة الثالثة, ٢٠١١.

[٣٨]: محمود, مصطفى -الماركسية والإسلام, دار المعارف, مصر, ص١٩-٢٠

٥- ياسين, عبد القادر, الحركة الشيوعية المصرية؛ الجذور-القسمات-المآل, الهيئة المصرية العامة للكتاب, القاهرة, ٢٠١١.

٦- محمود, مصطفى, لماذا رفضت الماركسية, دار المعارف, القاهرة, مصر.

٧- فوزي, محمود, اعترافات مصطفى محمود, دار النشر هاتييه, الجيزة, مصر.

٨- محمود, مصطفى, رحلتي من الشك إلى الإيمان, دار المعارف, القاهرة, مصر.

9. Manifesto of the Communist Party by Karl Marx and Frederick Engels, Feb. 1848, Translated by Samuel Moore in cooperation with Frederick Engels, 1888; Marx/Engels Selected Works, Vol. One, Progress Publishers, Moscow, 1969, pp. 98-137;

١٠- محمود, مصطفى, الله والإنسان, دار الجمهورية.

١١- محمود, مصطفى, أكذوبة االيسار الإسلامي, دار المعارف, الطبعة الثالثة.

١٢- محمود, مصطفى, الغد المشتعل, دار أخبار اليوم, الطبعة الثالثة, يوليو, ١٩٩٥.

١٣- محمود, مصطفى, حوار مع صديقي الملحد, دار العودة, ١٩٨٦

١٤- محمود, مصطفى -الماركسية والإسلام, دار المعارف, مصر

..... ***** .....